الإعلام بين
التنحل الاصطلاحي والتخبط الإجرائي

التنحل فى اللغة: ادعاء الشئ بالباطل، وهو نسبة الشيء أو الصفة الغيرية وادعاء خصوصيتها للنفس كذبا ومدالسة، وقد وقع تعمدا أو خطأ الإعلام العربي عامة والمصري خاصة فى هذه المدالسة وهذا الخطأ الفادح، الكفيل بحرق أي مقدمات للتقدم والنهوض علاوة على كوارث التنحل الإعلامي فى تشويش ذهن المتلقيين للرسائل الموالسة لهذا التنحل وخطورته على السلم الفكري والعقلي والنفسي والإجتماعي والإقتصادي للأوطان. فأن ينتحل تاجرا صفة خبير اقتصادي، ويرسل معطيات رسائله على الهواء لأناس ليس لهم ذنب إلا تصديق تلك المحطات. كارثة مؤسسية وقانونية ومهنية. فمثل هؤلاء الشخوص حتى وإن كانوا شيوخا للتجار، ليسوا بأي حالا من الأحوال خبراء فى ذلك العلم العميق والمتشعب والراسخ. مثل هذه الرسائل غالبا ما تعطي معلومات مغلوطة يصدقها المتلقي نظرا لشهرة أو نجاح أو ثراء المرسل. وغالبا ما يتحدث المتنحل من خلال تجربته الشخصية ويحاول تعميم تجربته الذاتية على عموم القضايا، رغم كونها لا تتعدى حالة فردية ربما نجحت بفعل ذكاء شخصي أو مصادفة بحتة. أما لأن تنتشر مثل هذه التجارب بين الناس وتخلق فكرا عاما بأن الإقتصاد هو ذلك العلم الذي يقدمه ذلك الخبير المزيف، وعليه لن يقتنع الناس وسيقفون بالمرصاد لأي مشروع إقتصادي علمي مقدم من خبراء

حقيقيين. فالكارثة ليست فى عرض تجربة نجاح. لكن فى عرض أفكار ليس لها علاقة بالعلم والواقع العالمي لحركة الإقتصاد واعتبارها نموذجا على الرغم من محدودية التجربة الذاتية خاصة ذلك المدلس، والتي لن تنجح معك كمشاهد مقتنع بذلك الهراء. فالتجربة الذاتية محكومة بقدرات شخصية وظروف زمنية وواقع اجتماعي لن تتوفر لك شبيهاتها مهما حاولت التقليد. فلكل تجربة خصوصيتها وعلى هذا النهج قدمت الفضائيات العربية مجموعة من المتنحلين والمدلسين بوصفهم خبراء فى السياسة أحيانا والطب أحايين أخرى ومرات فى العسكرية ورابعة فى الدين ولم تنجوا الفضائيات التي يسمونها المتأسلمين "الفضائيات العلمانية أو الليبرالية" من هذا القيئ الإعلامي، ولم تنجوا أيضا الفضائيات التأسلمية على حد وصف المتعلمنين لهم، من ذلك الخراء الانتحالي والتدليس المتعمد على المشاهدين. قبل أن نلج في تلك الممارسات التى أقل ما توصف بالحقيرة. فاللوم هذه المرة ليس على المتلقي مهما كانت درجة ثقافته ووعيه. فالمتلقي لن يسعى خلف مئات الرسائل والخبراء المزيفين الذي يتعرض لهم فى اليوم الواحد وإلا فإن فكرة البحث والتقصي التى عرضتها من قبل، تعتبر دعوة إلى تبديد الوقت وترك العمل والسعي فقط خلف تحري صحة مطروح وسائل الإعلام. الفهم بهذه الطريقة خاطئ وربما الطرح نفسه يؤطره الغموض. ففكرة البحث والتقصي عن صحة الرسائل يكون فى القضايا العامة والتى تشغل رأي المواطنين وتأخذ منه حيزا كبيرا، أما التقصي فى مئات الرسائل فعبثا يفعل المتلقي. يقع عليك كمتلقي

مهتم بقضية ما أو كنت مريضا يتابع طبيبا فضائيا أن تتحرى عنه قبل تعاطي الدواء. لكنني لا أحملك من المسئولية سوى ذراتها فالمسئولية بأكملها تقع على عاتق مؤسسات الدولة المنظمة لإداراتها، فلأن تكتشف بعد أربع سنوات من تناول أعشاب طبيعية وبول بعير و"زبل" إبل حتى أصابك الاستسقاء وتضخم الطحال وسرطان الكبد، وفى النهاية تكتشف أن الدكتور المعالج على المحطة الفضائية كان خريج كلية التربية الرياضية. الآن لسنا بصدد دولة على الإطلاق. نحن نتعامل مع سوق للماشية. يدخل من يدخل ويخرج من يخرج، وإذا ما رفسك حمار أو نطحتك بهيمة فلا دية لك. لذلك كان طرح مشروع ميثاق الشرف الإعلامي بمعزل عن المشروع الوطني محض هراء وافتعال ودعاية.

تعد قضية التنحل الحسنة الوحيدة التي فعلها التليفزيون الحكومي المصري وكان واعيا بخطورة مثل هؤلاء الأدعياء. لكن الكارثة الحقيقية أن تسمع من عوام الناس أن التليفزيون الحكومي كافرا لأنه يرفض دخول الشيخ "س" وقام بطرد الإمام "ج" على الرغم من أن الأول راسب دبلوم تجارة والثاني تاجر خردة مشهور. هناك استحالة فى أي دولة حقيقية فى العالم المتحضر أن تسمح لأي شخص غير مؤهل بممارسة علم ما. فلا يعقل أن مدرس يفتح عيادة طبية، ولأن الدين علم وليس مجال. فقد اقتضت الضرورة بأن يكون المتصف بصفة العالم قد اجتاز مراحل علمية معروفة ومعتمدة وقد تم التصريح له بمزاولة العمل. ربما يحيلنا التفكير الرجعي للمهوسين دينيا إلى قضية الدين والشهادات المعتمدة.

فهناك من يرى أنه بمجرد أن جلس إلى شيخ تحت بئر سلم لمدة زمنية معينة، حصل خلالها بعض المعارف والقشور التى تسمح له بالحديث على شاشة ما، أنه أصبح عالما. إن مقتضيات العلم والعقل والدين ذاته ترفض مثل هذه الممارسات الجنونية. فالعالم من تعلم وعلم حتى صار خبيرا فى مادة العلم. وننحي العلم جانبا ونستعرض بعض النماذج على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كي نتأكد أن ذلك التنحل كارثة دينية قبل أن تكون كارثة علمية وعقلية ومعرفية. السؤال المطروح: كان بن عباس حبر الأمة والإمام على باب مدينة العلم وعائشة من الرواة الثقاة وعالمة جليلة. ألم يكن مع هؤلاء جميعا شهادات علمية من مؤسسة دينية موثوق فيها ومعتمدة تماما؟ الإجابة لا تحتاج جهدا، إذا ما أقررت بأن المؤسسة الدينية الوحيدة المعترف بها فى ذلك التاريخ، هى مدرسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، لذا قال لابن عباس: اللهم فقهه فى الدين، وقال عن الإمام على: أنا مدينة العلم وعلى بابها، وقال عن السيدة عائشة: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء. أليست هذه شهادات معتمدة وموثقة، تفيد بضرورة اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن التواريخ تغيرت وشكل العالم ومؤسساته، لذا كان من الضروري أن يخضع الطالب للعديد من المراحل التعليمية المصحوبة باختبارات جدية حتى يصبح عالما. وقد خضع لها مع الحداثة من هم يفوقون ويتفوقون أدعياء الفضائيات، كالإمام الشعراوي والإمام عبد الحليم محمود والشيخ عطية صقر وغيرهم من كبار العلماء المشهود لهم

بالعلم والكفاءة ولم يستكبر واحد منهم على الخضوع للإختبار ولمن لم يقرأ التاريخ فليراجع سيرة الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وهل جلس للفتوى دون شهادة معتمدة أم حصل على الشهادة من مؤسسة رسمية؟ إن تلفيق الحقائق والتاريخ والدين لصالح الأهواء والأغراض الشخصية والحاكمية كارثة على المجتمعات. أفرز ذلك الجهل بالإصطلاح مجتمعا منحلا متخلفا متفسخا ليس له مساحة على الخارطة العالمية، وجلسنا لمشاهدة السقوط بإسم الدين، فكان هذا الحال المتردي نتاج خطاب ديني فضائي غث، وقد شاركه خطاب علماني وقح، لا يقل جهلا وتخلفا وحمقا عن الخطاب الديني. فقد مارس العلمانيون والليبراليون نفس التجربة المنحطة، واستضافوا على شاشاتهم سقط شجر المعرفة كخبراء فى السياسة وتحليل المضمون وأدعياء المعرفة بوصفهم خبراء الدولة، إذا ما كان هناك دولة بهذا الوصف وهذا الإرتجال وتلك العشوائية.

الكوارث واحدة واحالة هذه إلى الدين وتلك إلى العلمانية، محض دعاية تلفيقية لتمرير مشاريع ذاتية، فلا هذه بالدينية ولا تلك بالعلمانية، وما بينهما شعوب مقهورة معرفيا. تسعى إلى تصديق أن الفنون والآداب حرام، تلك الفنون الوحيدة القادرة على بناء الصور الذهنية وإطلاق الخيال لصالح الأوطان. وأيضا التصديق بأن بيتري وكارتر وبيلزوني كانوا من أعظم المكتشفين للحضارة المصرية القديمة. من يعيش بهذه الطريقة فى التفكير ماذا ننتظر منه إلا تكفير من يخالفه. وسباب من يحاورة، ومعارضة كل جديد بدعوى البدعة والضلالة وما شابه من إصطلاحات لم يدرسها كي يقف

على حدود المقصود منها، وقد تجاهل تماما أن المصلح مناقض لمصطلح آخر ودافع لجدله من باب السنن الحسنة الداعية إلى الإبداع الحسن. وهذا العوار المطروح مع رسائل الفضائيات المتأسلمة، كان موازيا له عوار رسائل القنوات الليبرالية، فى الإشادة بالآخر وقبوله بكل ما له وما عليه، دون نقد التجارب وقراءة الهوية الوطنية والوقوف على محددات المشروع النهضوي الحالمين به. ولا تخل تلك الفضائيات بأنواعها، ربما أيضا تجاوز التليفزيون الحكومي الغارق فى غيبوبته الذاتية تلك الجريمة المهنية، وهي أن يخلط مقدم البرنامج بينه وبين الضيف الخبير، وبين كونه مقدم برنامج يعمل طبقا لمعطيات الإعداد البرامجي و"سكريبت" مجهز مسبقا، وبين كونه خبير فى المادة المقدمة. فعندما ترى مذيعا يجلس على الشاشة يوميا ويحدثك فى كافة القضايا بوصفه خبير فى كل المطروح، فهذا يعتبر تنحل لصفات متعددة، ولو أنه يعمل داخل دوله بمعناها المؤسسي لاتهم بالنصب والتنحل على الفور. وأيضا نرى مقدم البرنامج يوجه الضيف عنوة ناحية وجهة نظره التى لا تمثل أي قيمة داخل البرنامج، من باب الشهرة والتشهير والاتصاف بالوطنية أو الشهامة أو الشجاعة. فالتقديم البرامجي فن وعلم بذاته. له أدوات وآليات معروفة لدي الباحثين. قد يتسائل البعض عن برامج بعينها ويراها برامجا محترمة وفيها يجلس الضيف فى شكل برامجي معروف بالمحاضرة المصورة أو اللقاء المباشر، ويتحدث فى موضوع ما وبطريقة رائعة ويقدم معلومات قيمة. إن مثل هذه النوعية من البرامج تسير فى إتجاه

واحد، بمعنى أن من يقدمها يكون خبيرا فيما يقدم، كطبيب يقدم برنامجا طبيا أو فنان يعرض رسائل فنية أو عالم فى القراءات القرآنية يقدم رسائلة. فهذا الشكل البرامجي لا يتخطى المرسوم له، فلو أن الطبيب تجاوز وقدم رسالة فى الهندسة، فلابد وأن يحاسب على التنحل، وإذا ما تجاوز الفنان وحلل خطابا سياسيا بوصفه محلل، يدخل فى ذات الإطار التدليسي، وكذلك عالم القراءات إذا ما دخل فى الإفتاء، أصبح نصابا ممارسا لمهنة النصب. كي نتجاوز ذلك السقوط ونجيد معرفته لابد وأن نعرف أولا معنى التقديم التليفزيوني وأدبيات التقديم والإعداد ووظائفه كمعارف تسهيلية لكشف السليم من المعيب.

الفهم قبل القانون، والوعي قبل العقاب، والمشروع الوطنى الشامل قبل ميثاق الشرف الإعلامي. النهضة تقوم على التكامل، والاجتزاء والعمل بنظام القطعة حال يدعونا للرثاء ودعوة للتخبط، ومقدمات كبيرة ستحيلنا إلى فشل عظيم. رؤية الأشياء من زاوية واحدة تضيع فرص الرؤية من زوايا متعددة، ولا تمنحنا خيارات مختلفة وثرية. فما نهض وطن خالف مصطلحه إجراءه. فرفقا بالوطن.